الفصل الثاني

مملكة السماء

كانت مملكة القدس اللاتينية قد ظهرت قبل تسعٍ وثمانين سنة مع نجاح الحملة الصليبية الأولى. ففي سنة 1198م اجتاح غودفري دو بويون أسوار المدينة المقدسة، وقتل آلافاً من الجنود المسلمين المدافعين عنها. وفي الدماء الغزيرة التي سالت في أزقّة القدس الحَجَرية، سار الصليبيون فخورين، قبل أن يجثوا على رُكَبهم أمام المذبح المقدَّس بكنيسة القيامة، شاكرين الله على ما حباهُم به من نصر. وبعد ثلاثين سنة على تلك الواقعة كانت المملكة الصغيرة قد بلغت ذِروة قوّتها. فقد دفع الفرسان المسيحيّون حدودها في شتى الاتجاهات، كما لو أنّ العالَم الإسلاميّ ليس أكثر من وسادةٍ من الريش. ازدهرت المملكة الصليبية على وقْع انقسام الأعداء وعجزهم. فالقبائل العربية الألف كان لها أُمراؤُها ووزراؤها، الذين يتبعون بغداد أَو القاهرة، والذين يتخاصمون على أشياء صغيرة، ثم ينصرفون للصلاة بحسب المذهب السنّي أَو الشيعي من مذاهب الإسلام!

حوالي سنة 1131م كانت مملكة الصليبيين قد ضمّت بين جَنَباتِها القسم الأكبر من فلسطين وسواحل بلاد الشام. وقد تمركز الغزاة الأوروبيون، الذين صاروا يُعرفون بين العامّة بالفرنجة، في المدن الساحلية المهمّة مثل اللاذقية

وطرطوس وطرابلس وبيروت وصور وعكا وحيفا وقيسارية ويافا وعسقلان؛ وهذا بالإضافة إلىٰ المدن الداخلية التالية: حمص وأنطاكية وطبرية ـ وبالأخصّ أهمّ تلك المدن: القدس! أما النواحي الريفيَّة فقد تُركت في الأعمّ الأغلب للسكّان الأصليين، الذين كان عددُهم يفوق عددَ السادة المحتلين بنسبة خمسة إلىٰ واحد. وكان هؤلاء الفلاّحون يحرثون حقولهم بسلام، ويستنبتون الحبوب والثمار، التي يؤدّون نصفَها للسادة؛ في مقابل السَّماح لهم بإدارة شؤونهم بأنفسِهم.

وصل عدد سكّان تلك المملكة الغالية إلى حدود المائتين والخمسين ألف نسمة. وضمّت أكبر مدينتين فيها القدس وعكّا حوالي الـ 25000 نسمة (مع أنَّه بعد المذبحة في القدس فإنّ أكثر أحياء المدينة صارت فارغة، مما اضطرّ المسؤولين إلىٰ إسكان آخرين من مناطق أخرى؛ وبخاصةٍ بعد عودة جيش الحملة الأولى إلىٰ أوروبا). أما القسم الشمالي من المملكة فكان مقسوماً رسمياً إلىٰ مقاطعاتٍ مستقلَّة مثل إمارة أنطاكية، وكونتيات حمص وطرابلس، التي كان سادتُها أتباعاً لملك القدس. وباستثناء حالاتٍ قليلةٍ فإنّ كبار شخصيات مملكة القدس الصليبية في المشرق، كانوا الأقلّ أهميةً ونفوذاً بين نبلاء الإقطاع في ديارهم الأصلية. لقد كانوا شباناً أبناء إقطاعيين صغار، ليس لهم مستقبلٌ في القارّة ليعودوا إليه، لأنَّهم إنما أتوا إلىٰ المشرق بحثاً عن الثروة والموقع والمغامرة.

في مواجهة الكثرة العددية للمسلمين وجيوشهم، والتي ما كان بوسع الصليبيين منافستُها، بنى هؤلاء سلسلةً من الحصون والقلاع الضخمة، لتكوين نظامٍ دفاعيٍ امتدَّ بموازاة الشاطىء. وكانت تلك القلاع متناظرةً بحيث يمكنُها أن تتواصل عن طريق النيران والمشاعل والدخان. فقد كان بوُسع حُماة قلعة الكرك مَثَلاً أن يتواصلوا عن طريق الدخان والنار (نهاراً وليلاً) مع القدس، إلىٰ مسافةٍ تمتدّ حوالي السبعين ميلاً. ثم إنّ الحصون القائمة على قمم الجبال، والمشرفة

على الروابي والوديان الاستراتيجية؛ كان بوسعها أن تكشف وتراقب الأرض التي حولها حتى الأفق البعيد.

أما الجيوش الصليبية فإنّ الرهبان المقاتلين من فرسان الهيكل Templars والإسبتارية Hospitalers، كانوا عمودَها الفقري. فهؤلاء المتحمسون للصليب كانوا نبلاً وفرساناً في الأصل، وقد تركوا جواهرهم وحصونهم ونساءهم في أوروبا، وأتوا إلى المشرق ليحيوا حياة زُهدٍ وتقشّفٍ ودفاعٍ عن الأرض المقدسة. ولا شكَّ أنّ إقبال الرهبان على حمل السلاح، مَثَّلَ تغييراً عميقاً في مفهوم الحرب المقدَّسة الذي غزا الكنيسة. كان القديس مارتن St. Martin قد عبَّر عن التقليد القديم في القرن الرابع الميلادي حين قال: «أنا جندي المسيح، ولذلك لا يجب عليَّ أن أُقاتل». فإراقة الدماء في المعركة معصيةٌ لا يصحُّ ارتكابُها. ولا شأنَ لأهل القداسة من الكهنة بالنزاعات الدنيوية. فالكنيسةُ القديمة لم تكتف بتحريم المشاركة في القتال، بل إنها لم تكن تُجيزُ حملَ السلاح. لكنْ بعد عقودٍ قليلةٍ على رأي القديس مارتن هذا، جاء رأيُ القديس أوغسطين St. Augustin المناقض لذلك. ففي بعض الظروف يمكن أن تكون الحربُ أخلاقيةً بل وعادلة. والحربُ العادلةُ ينبغي أن تكونَ دفاعيةً في الممارسة؛ إذ على المسيحيين أن يحملوا السلاحَ للدفاع عن الأرض المسيحية ضدّ أعداء المسيح. ويتلاءمُ ذلك تماماً مع الدعوة لحماية الأرض المقدَّسة (باعتبارها أرضاً مسيحية). ويمضي أوغسطين قائلاً إنّ الحربَ تكونُ مقدسةً أيضاً إذا أقَرَّها المسيح، والجنود ليسوا إلاَّ خَدَماً للرب (يطيعون أوامره). وذلك من مثل الحرب الرامية للحفاظ على طهارة الكنيسة الكاثوليكية، أو لنُصرة الإيمان ونشره. هذه التأمّلات والأفكار هي التي عقلنت قضية الحرب المسيحية. وقد وضع شارلمان هذا التوجُّه موضع التطبيق عندما حاول غزو إسبانيا الإسلامية، كما عندما أنشأ في أوروبا الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة.

بحث المتشدِّدون الجُدد في الإنجيل وأقوال القديسين عن شواهد وأدِلَّة

لنزعتهم العسكرية. ووجدوا ضالَّتَهُم في رسالة القديس بولس الثانية إلىٰ تيموتاوُس: «احتمل المشقات كجندي صالحٍ للمسيح يسوع. ليس أحدٌ يتجنّد فيرتبكَ بهموم الحياة؛ وذلك ليُرضيَ الذي جنَّدَه..» [تيموتاوُس 2: 3 ـ 4]. وحلَّ القديس ميخائيل St. Michael محلَّ القديس مارتن؛ لأنّ القديس ميخائيل قتل التنين الشيطاني كما في سفر الرؤيا (رؤيا يوحنا) [12: 7 - 11]. وكذلك القديس جورج St. George، شفيع إنكلترا قتل التنين الشيطاني، وكان في الحقيقة جندياً حقيقياً للملك. وبذلك صار قُدَّاس القديس ميخائيل هو نفسه صلاةَ الحرب أَو شعيرتَها، وكان يُنشَدُ بأعلى صوت قبل المعارك الكبرى في العصور الوسطى. وفي القرن الحادي عشر؛ انتهى أيضاً تقريباً الحظر الذي كان على القساوسة بمقتضاهُ أن لا يحملوا السلاح. وصار ما تطلبه الكنيسة (ممارسات) الفروسية وأخلاقيات الشهيد. وما كان دعاةُ الحرب الصليبية يقولون ذلك صراحةً؛ لكنهم كانوا في الحقيقة يستعيرون للحرب المسيحية الأسطورة الحربية الأَيسلندية. فالولهالا صارت هي الجنّة، ووُدن Woden صار المسيح. أما الجنود المسيحيون فصاروا أشبه بأبطال النيبلونغن، والفايكنغ، وبيت كارل المنتسب إلى سفاين فورْك بيرد Carles of Svein Forkbeard.

هذا التحوّل من المعاناة المسيحية إلىٰ العسكرية المسيحيَّة، ما كان سهلاً على الجنود الأفراد البسطاء، الذين وقعوا في ارتباكٍ أخلاقي. فنقرأ في سيرة أحد جنود الحرب الصليبية الأولى: «غالباً ما كنت ممتلئاً بالقلق» «لأنّ الحربَ التي كان مشاركاً فيها باعتباره من فرسان الصليب، بدت مناقضةً لأمر الرب بإدارة الخدّ الآخر. وقد أدَّت هذه التناقضات إلىٰ سلبه الجرأة. لكنْ بعد أن أصدر البابا أوربان صكّه للغفران، الذي عرض فيه إسقاط ذنوب وخطايا سائر الذين يقاتلون المسلمين؛ فإن اليقظة دبّت في أوصاله، واشتعل حماساً، كأنما هو يستيقظ من سُباتٍ عميق..».

قبل سيطرة الصليبيين على الديار المقدَّسة في الحرب الصليبية الأولى

سنة 1099م؛ كانت رهبانية الإسبتارية قد تأسَّست بالقدس من أجل رعاية الفقراء والمرضى. ثم صدر مرسومٌ بابويٌّ يعتبرها رهبانيةً سنة 1113م، ويضعها تحت إمرة البابا مباشرةً، في استقلاليةٍ كاملةٍ عن كلِّ السلطات المحلية. وفي سنة 1136م سمح البابا للرهبانية بالمشاركة في القتال. وقد شارك الإسبتاريون فعلاً في معارك كبرى وحروب في حملة إليانور الثانية، وبطلبٍ منها، سنة 1147م.

وبالتعاصُر مع الإسبتارية، ظهرت رهبانيّة فرسان الهيكل التي تأسّست سنة 1119م. وفي سنة 1128م صدر المرسوم البابويُّ بإجازتها مع التأكيد على مقصدٍ رئيسيٍّ لها هو حماية طرق الحجيج إلىٰ بيت المقدس عبر مسارب منطقة الشرق الأوسط المعقَّدة. استلهمت الرهبانية الجديدة مبادئها من القديس برنارد أُوف كليرفو الذي كان قد أعلن أنّ «القتل في سبيل المسيح» هو فروسيةٌ وليس قتْلاً، وعندما «تقتل وثنياً فإنك تحتازُ مجداً، لأنك إنما تفعل ذلك من أجل مجد المسيح». لقد بزغ فجرٌ جديدٌ اكتسبت فيه الفروسيةُ مسْحةً دينيةً قُدْسيّة. وقد التزم الرهبانُ المُحاربون بالفقر والورع والتقوى والطاعة مثل سائر الرهبانيات. وعندما كانوا يرتدون عُدَّتَهم القتالية، كانوا يعِدون بأن يكونوا المقدمةَ في المعارك ضد الكفرة، وأن يكونوا أولَ من يهاجم وآخِر من ينسحب. وفي سنة 1128م رُسم لفرسان الهيكل ارتداء زِيٍ أبيض رمزاً للبراءة والإخلاص، وأُضيف إليه صليبٌ أحمر اللون خلال الحملة الصليبية الثانية بعد تسعين سنة. أما في الحرب فقد كانت تتقدم صفوفَهم رايةٌ بِلَونَين أبيض وأسود للمعركة تُسمَّى الـ Beauceant، تشير إلىٰ رقّتهم مع الأصدقاء، وعنفهم تجاه الأعداء. وفي المبدأ فإنّ كلا التنظيمين الإسبتارية وفرسان الهيكل، كانا يمثّلان في نظر الكنيسة الحرب العادلة والمقدَّسة. وكان فرسان المسيح هؤلاء تابعين مباشرةً للبابا من خلال رؤسائهم العامين. وكان يُنظَرُ إليهم باعتبارهم مترفعين عن النزغات والنزاعات الدنيوية، كما أنَّهم كانوا خارج العنف الجاهل الذي يمارسه الجنود

العاديون. وهكذا فإنّ هاتين الرهبانيتين العسكريتين كانتا في ذروة النفوذ والسلطة في الحرب الصليبية الجارية.

ومن على أسوار قلاعهم المتربعة على قمم الجبال، كما من ثكناتهم الحضَرية، كان هؤلاء الرهبان الفرسان ينظرون نحو الشرق، مستشرفين تلك الهضابَ العالية، والصحارى المنبسطة من بلاد المسلمين. وكانت تُعاونهم في أعمالهم العسكرية كتائبُ من الرُماة، وفِرَقٌ من حَمَلة الدروع، وألويةٌ من المرتزقة المحليين عُرفوا بالمُتَتَرّكين ـ وهم جنودٌ من أعراقٍ مختلفة أثبتوا على مدى سنواتٍ كفاءةً في مواجهة فرسان العرب الرُماة ـ. وقد أثبتت الجيوش المسيحية ـ المكوَّنة من متطوعين متحمسين، مسلَّحين جيداً، تقودهم نُخَبٌ من الفرسان بلباسٍ حربيٍ ثقيل ـ أنها لا تُقْهَرُ في مواجهات الاشتباك. بيد أنّ معارك الاشتباك كانت نادرة، وقد بذل الصليبيون جهوداً كبيرةً عبر عقودٍ متطاولةٍ من السنين لتجنُّبها. إذ اعتمدوا في تكتيكاتهم العسكرية على قلاعهم المنيعة التي كانوا ينسحبون إليها، ويتحصَّنون فيها.

ومع مضي أجيالٍ (على الوجود الصليبي بالمشرق) بدأ الأوروبيون يتخلَّونَ عن عاداتهم ويميلون للاستمتاع بمناعم الشرق. ففصول الشتاء العاصفة والقصيرة، والصيف الحارّ والطويل؛ كلُّ ذلك غيَّرَ من وقْع وأسلوب الحياة لديهم. لقد استبدل الفرنجة بقبعاتهم وخوذاتهم البرانس والعمائم والكوفيات، كما انتعلوا الخفاف الشرقية الرقيقة. وفي غياب الخشب في الأثاث، والهندسة الداخلية بالمنازل، تربّعوا على الأرض على السجّاد المفروش، والدواوين المحشوة بالريش. كما أنَّهم زيَّنوا دُورَهم الحجرية بالحرير والدمشقيّ، وعطَّروا نساءهم بعطور الشرق، وضوَّعوا غُرفَهنَّ بالبخور؛ بل إنهم وضعوا على وجوههنَّ النقاب، واصطحبوهنّ إلىٰ الأسواق الشرقية المفتوحة من أجل التبضُّع. ولقد استمتعوا بالغطس في الآبار العميقة، وباستعمال الصابون، واستنبتوا الأزهار والورود في حدائقهم، وتحدَّثوا العربية، وفلفلوا أرزَّهم

بالزعفران، وحلَّوا شايهم بالسكر والليمون، وختموا مآدبَهم بالبطيخ والتمر، وسلَّوا أنفسَهم بإنشاد الغَزَل العربي، وبالراقصات المحليات. لقد كانت الحياةُ رائعةً في هذه الحديقة المُثيرة من المسرَّات. قال أحد سكّان عكا: «لقد جعل الله هذه البرية غنية. بحيث إنه حيث تكونُ الوحوشُ والأفاعي تنتشر أيضاً الحقول الخضراء من القصب والخيزران». (وما اقتصر الأمر على هذه المظاهر) بل أقبل بعض الغربيين على الزواج من شاميات وأرمنيات وبيزنطيات. وقد أنتج هذا الاختلاط ظهور طبقةٍ جديدةٍ من الأوروبيين الشاميين سمُّوا الـ Poulains ومعناها الأطفال أَو الأولاد. فالجيلان الثاني والثالث من الأوروبيين توصلوا إِلىٰ اعتبار أنفسِهم جليليين أَو فلسطينيين أكثر من كونهم فرنسيين أَو رومانيين، واعتبار أنفسهم مواطنين من صور أَو أنطاكية أكثر من نسبة أنفسهم إِلىٰ ريمز أَو تولوز.

بيد أنّ ظهور الفرنجة باللباس المحلي، وقَصْدَهم للأسواق المزدحمة، وبلوغَهم درجةً مقبولةً من التسامُح، لم يُفْقِدْهُم إحساسهم بأنَّهم ينتمون إِلىٰ ما وراء البحار. لقد تلاءموا مع الأجواء الجديدة لكنَّهم لم يتقبَّلوها. ما صاروا متوطنين، بل ظلُّوا محتلين. وقد نظروا بشيءٍ من الرضا وغضّ الطرْف إِلىٰ ضَعفهم (أمام مُتَع الشرق)، كأنما أرادوا أن لا يكونوا الجيل الأخير الذي يتلذّذ بهذه المسرَّات الحسِّيَّة.

كان الزائرون (للمملكة الصليبية في المشرق) أواخرَ القرن الثاني عشر يُصْدَمون برؤية الفساد المنتشر، والاستهتار السائد في أوساط أبناء عمّهم البعيدين: «من بين البولين يندُرُ أن تجد واحداً من بين ألف يأخذ زواجَهُ مأخذ الجد»؛ هكذا كتب مطران عكّا عن رعيته الشريرة ومدينتها: «إنَّهم لا ينظرون إِلىٰ الزِّنا باعتباره خطيئةً كبرى. فهم مدلَّلون منذ صِغَرهم، ويندفعون في موج اللذائذ العارضة. ثم إنَّهم ليسوا معتادين على سماع كلمة الله، التي ينظرون إليها نظرة استخفاف. وفي أكثر الأحيان، يُقتلُ أُناسٌ علناً أَو سراً وبالليل والنهار.

وفي الليل يُقلق الرجال زوجاتهم اللاتي لا يُحببنهم، أما النساء فيستخدِمْنَ السُمّ والعقاقير (ضد أولئك الأزواج)، حسب العادات القديمة. وفي المدينة هناك باعةٌ للسموم والمُهْلِكات؛ بحيث لا يستطيع أحدٌ أن يثق بأحد. كما أنّ فيها كثيراً من المومسات، وبيوت الدعارة. ولأنّ الداعرات يدفعن إيجاراً عالياً للمنازل؛ فإنّ المؤجّرين ليسوا الناسَ العاديين وحسْب؛ بل بينهم رجال دين، ورهبان أحياناً. وهم يقومون جميعاً بتأجير منازلهم للمومسات».

فَقَدَ أعقابُ الصليبيين الأوائل من رجالات الحملة الصليبية الأولى انضباطهم وقِيَمهم لكنهم لم يتوقفوا يوماً عن الإحساس بأنَّهم غرباءُ في محيطٍ مُعادٍ. فطوال تسعين سنة، بل وحتى الحملة الصليبية الثانية سنة 1147م، عاش هؤلاء في نِزاعٍ دائم مع العرب، وانتشرت في أوساطهم مشاعرُ معاديةٌ لأهل الشام. فقد كتب المطران السالف الذكر عن السوريين (المسيحيين): «إنهم في الأغلب الأعمّ أُناسٌ لا يمكن الثقة بهم». وتابع: «إنهم غشَّاشون، وثعالب خُبثاء مثل اليونانيين، وكاذبون، ومنافقون، ويعشقون الربح، وخونة، ويسهُل كسْبُهم بالرشوة، يقول أحدهم الشيءَ ويقصِدُ عكسه. لا يعتبرون السرقة والنصب أَمراً مَهولاً. ومن أجل مبلغٍ ضئيلٍ من المال يصبحون خونةً ويُطْلِعون العربَ على أسرار المسيحيين. ولا عجب في ذلك فقد نشأوا بينهم، ويفضّلون استعمال لغتهم أكثر من أي لغةٍ أُخرى. ثم إنَّهم (يقلّدون العرب) في الخديعة والاحتيال».

أما اليهود فقد كانت تُستعمل بحقّهم صنوفٌ أُخرى من الشتائم والمذمّات؛ لأنهم غارقون إلىٰ الأبد في «عارهم الدائم»: «لقد أبقاهم المولى لزمنٍ محدَّد مثل الجذع خارج الغابة لكي يُوقَدَ عليه في الشتاء، ومثل كرم شرّير، لا يُنتجُ غير عناقيد مُرَّة». وذكر المطران أخيراً السبب: «لأنهم يذكّروننا دائماً بموت المسيح».

وحوالي سنة 1187م كان العرب أيضاً قد نمَّوا مشاعر عدوانيةً مماثلةً ضد

الغُزاة الأوروبيين. فالدخلاءُ البيض لم يُسهموا بأيِّ إضافةٍ في ثقافة الشرق الأوسط. لا مؤسَّسات علمية، ولا موسيقى، بل مآسٍ وسفك دماء. كتب أميرٌ معروف من شمال سورية (عن الصليبيين) ما يلي[1]: «والإفرنج ـ خذلهم الله ـ ما فيهم فضيلةٌ من فضائل الناس سوى الشجاعة، ولا عندهم تقدمةٌ ولا منزلةٌ إلاَّ للفرسان، ولا عندهم ناسٌ إلاَّ الفرسان ـ فهم أصحاب الرأي وهم أصحاب القضاء والحكم...».

كان بين القادمين الجُدد ملك القدس نفسه: غي دو لوزينيان Guy De Lusignan. وينتسب الملك الجديد إلىٰ أسرةٍ من صغار النبلاء في أكيتان، والتي تقول الأسطورة إنّ تلك الأسرة تتحدر من نسل أفعى اسمُها ميلوزين Mélusine. وقد وصل غي إلىٰ الشرق قبل سنواتٍ قليلةٍ في ظروفٍ غريبة. فقد نُفي من مسقط رأسه بواتو Poitou لأنه قتل الإيرل أُوف سالسبوري عندما كان ذاك النبيل الورع عائداً من الحجّ إلىٰ سانتياغو دو كومبوستيلا Santiago de Compostela. وتشاء الأقدار في الحرب الصليبية الثالثة أن يكون الأمر بنفي غي قد وقّعه أمير أكيتان آنذاك، ريتشارد أُوف بواتو Richard of Poitou، الذي صار فيما بعد ريتشارد الأول ملك إنكلترا، والمعروف بقلب الأسد. وفي محاولةٍ لتحويل اللعنة إلىٰ فروسية، تاب غي وحمل الصليب ومضى نحو الأراضي المقدَّسة. وهناك حصل على موقعه، مثل شاتيون Châtillon، بقيم الفخر والاختيال، ومن طريق الزواج المحظوظ. فقد كان عاشقاً جيداً أكثر منه مقاتلاً مجيداً. استطاع غي، الجريء، والطَموح، والماهر، أن يُغويَ الشابة المترمّلة حديثاً سبيلا Sibylla، أخت ملك القدس. وقد أقدمت تلك السيدة

(1) الأمير المقصود هو أسامة بن منقذ صاحب كتاب «الاعتبار»، حرّره فيليب حتّي، طبعة جامعة برنستون بالولايات المتحدة، 1930، ص 64. ويبدو أن المؤلف اقتبس الفقرة من الترجمة الإنكليزية التي قام بها حتّي أيضاً. وهناك نشراتٌ أخرى للاعتبار وترجماتٌ له إلى اللغات الأوروبية في القرنين التاسع عشر والعشرين (المترجم).

على الزواج من غي الأدنى مقاماً، من الناحية الاجتماعية، رغم إباء أُسرتها، ورفض الكنيسة. وقد أُجريت مراسِم الزواج بسرعةٍ غير معهودة، وأثناء الفصح الذي تَحرُمُ فيه الأنكحةُ عادةً؛ ليجد المحتال غي نفسَهُ في خطّ السيادة والمُلْك. يقول وليم الصوري، المؤرّخ الكبير للحروب الصليبية، في عرض تلك الواقعة بطريقةٍ تخدمُ غي دو لوزينيان: «لقد كان نبيلاً بما فيه الكفاية» لاستيفاء شروط المُلْك. لكنْ لا أحد كان مسروراً بذلك، باستثناء سبيلا. ومع الزواج مباشرةً جاء الإقطاع الأول: غي دو لوزينيان، المتحدر من أفعى، والمطرود من بواتو، واللاجىء والمخادع، يصبح الآن سيداً ليافا وعسقلان. ومنذ زواجه سنة 1180م من سبيلا؛ فإنّ غي دو لوزينيان ظلّ مغموراً بسيول الحظّ. فقد كان ملك القدس وقتها بولدوين الرابع، وهو قائدٌ ذكيٌّ وحكيم، لكنّ سوء الحظّ رماه بداء الجُذام، الذي شوَّه خِلقَتَهُ ثم أعماه وقضى عليه في النهاية؛ دون أن يترك أعقاباً. وعندما ظهر غي دو لوزينيان على المسرح كانت حالة الملك بولدوين تسوءُ من سنة لأخرى. وكان وريثه على العرش ابن أخيه المريض والمخلَّف في طفولته. وبين مرض المِلك وعدم بلوغ الطفل، عُيِّنَ غي دو لوزينيان سنة 1184م وصياً على العرش؛ فقبض بذلك على زِمام الأمور. وقد أدَّى هذا التعيين إلىٰ شرعنة وضعه، كما رفَع ذلك من مقامه. بيد أنّ الغضب بين النبلاء المحليين لرِفعة هذا الدخيل كان عنيفاً، وأدَّى إلىٰ شلّ الجيش. وسرعان ما بدا جُبْنُهُ في المواجهات مع المسلمين في ربيع توبانيا فعُزل عن الوصاية، لكنه لم يفقد حقّه في العرش. ولذلك فقد ارتفعت أصواتٌ تطلب من سبيلا أن تُطلِّقَهُ، وتتزوج رجلاً أكثر كفاية. وفي حروب الوراثة، كان خصمه على القيادة والحب النبيل الآخر الكونت ريموند Raymond نفسه.

مات المِلك المجذوم سنة 1185م. كما مات الوريث الضعيف في السنة التالية. وعلى الرغم من أنّ غي كان مكروهاً من جانب البارونات، وأنّ ريموند كان أدنى تقنياً من العرش؛ فإن غي استطاع أن يشقّ طريقَه بمهارةٍ إلىٰ سرير

المُلْك. ومرةً أخرى جرت مراسمُ سريعةٌ أُلبس خلالها غي دو لوزينيان أردية المُلْك في القصر الملكي، ثم أسرع إلىٰ كنيسة القيامة من أجل التثبيت من جانب بطريرك القدس. وفي أقدس مكانٍ مسيحي وُضع التاج على رأس الملكة سبيلا. ثم قال لها البطريرك نافذ الصبر كأنْ لم يُطِقْ سماع إجابتها: «سيدتي، إنكِ فائقة المجد. وقد يكون ملائماً أن تجدي (المستشارين) الذين يستطيعون معاونَتَكِ في حكم مملكتك؛ أياً يكن هؤلاء! خذي هذا التاج وأعطيه لأي رجلٍ يستطيع مساعدَتَكِ أكثر في حكم مدينتك!». بهذه الطريقة نحَّى البطريركُ عن نفسه أية مسؤوليةٍ قد تنجُمُ عن سوء اختيارها. وطبعاً؛ فإنها وضعت التاجَ على رأس حبيبها غي. ومن هناك مضى الحبيبان الملكيان إلىٰ جبل الهيكل لإقامة وليمةٍ احتفاليةٍ لنبلاء وشخصياتٍ مختارة. وبهذه السرعة التي بلغت حدود التسرّع، صار غي دو لوزينيان ملكاً في أواسط سبتمبر سنة 1186م.

قال بارونٌ غاضب: «لن يحكم أكثر من سنة واحدة». لكنّ البواتيڤين Poitevins (الأوروبيين، القادمين الجدد) من حول غي كانوا شديدي السرور. فالبواتيڤين صاروا الآن في مواجهة البولين (الفاتحين القُدامى). وقد أُعطوا الاسم الموحي: الفرسان الأُصلاء! وسارع البواتيڤين في بلاط الملك غي إلىٰ تعيير البولين بالأنشودة التالية:

Maugré Li Polein
Avrons nous roi Poitevin

لقد أحدثت هذه السخرية المختالة والمُزعجة: «على رغم أنف البولين، نريد أن يكون ملكُنا من البواتيڤين» مشاعر سُخْطٍ ظلّت لأمدٍ طويل. ثم إن الملك الجديد على مملكة القدس، لم يستطع استعادة احترام نبلائه الساخطين.